

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (25-95): تفسير الآيات 48-54، ساعة الموت هي
ساعة الفصل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-01-1999

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاه والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما
علمنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً
وارزقنا إتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يسمعون القول فيتبعون أحسنه
وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس والعشرين من دروس سورة البقرة.

إذا انحرف المؤمن عن منهج الله تقتضي رحمة الله أن يسوق له بعض الشدائـد كـي يعيده إـليـه :

مع الآية الواحدة والخمسين وهي قوله تعالى :

(وَإِذْ وَاعْدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخْذَمُ الْعَجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَثْمَمْ ظَالِمُونَ (51))

وقبل هذه الآية :

(وَإِذْ تَجْيَئُكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدْبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ
بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بَعْضَ الْبَحْرِ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَثْمَمْ نَظَرُونَ (50))

أيها الأخوة، بشكل مختصر مركـز خلق الله الإنسان ليسـعـدـهـ فيـ الدـنـيـاـ وـالـآخـرـةـ، فإذا انحرـفـ عنـ منـهـجـ

الله تقتضـيـ رـحـمـةـ اللهـ آنـ يـسـوـقـ لـهـ بـعـضـ الشـدائـدـ كـيـ يـعـيـدـ إـلـيـهـ، هـذـاـ كـلـ مـاـ فـيـ الـأـمـرـ:

(وَلَنْ يُنْقَذُوكُمْ مِنَ الْعَذَابِ إِلَّا دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

(سورة السجدة)

وقال:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْلُو عَنْ كَثِيرٍ (30))

(سورة الشورى)

من أشد أنواع القهر أن تُساـقـ المصـيـبةـ عـلـىـ يـدـ إـنـسـانـ مـثـلـ يـقـهـرـكـ :

لذلك العـلاـجـاتـ التـيـ يـسـوـقـهاـ اللهـ عـزـ وـجلـ لـعـبـادـهـ مـوـعـدـهـ وـكـثـيرـهـ، وـعـلـىـ درـجـاتـ، وـعـلـىـ مـسـتـوـيـاتـ، لـعـلـ

من أشدـهـاـ أـنـ يـبـتـلـيـهـمـ اللهـ عـزـ وـجلـ بـظـالـمـ يـدـبـحـ أـبـنـاءـهـمـ وـيـسـتـحـيـ نـسـاءـهـمـ يـؤـكـدـ هـذـاـ المعـنىـ قـولـهـ تـعـالـىـ:

الدرس (25-95): تفسير الآيات 48-54، ساعة الموت هي ساعة الفصل

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ (65))

(سورة الأنعام: من آية " 65 ")

الصواعق، والصواريخ:

(أُوْ مِنْ تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام: من آية " 65 ")

الزلزال، والألغام:

(أُوْ يَلْبِسَكُمْ شَيْئًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 65 ")

لعلَّ من أشدَّ المصائب أن يَقْهَرَ إنسانٌ إنسانًا، إذا أنتَ المصيبة من الله مباشرةً فهي تُقبل بشكٍ أو باخٍ، أما أن تُساق المصيبة على يد إنسان مثل يقهرك، فذاك أشد أنواع القهر، ولذلك استعاذه النبي عليه الصلاة والسلام بالله من:

((أَعُوذُ بِكَ مِنْ غُلْبَةِ الدِّينِ وَقُهْرِ الرِّجَالِ)).

[أبو داود عن أبي سعيد]

وقد ورد عن سيدنا علي: " وَاللَّهُ وَاللَّهُ مَرَّتَيْنِ لَحْفَرَ بَنَرِينِ بَابِرَتَيْنِ، وَكَنْسَ أَرْضَ الْحَجَازَ فِي يَوْمِ عَاصِفٍ بَرِيشْتَيْنِ، وَنَقْلَ بَحْرِينِ زَاهِرِينِ بِمَنْخِلِينِ، وَغَسْلَ عَبْدِينِ أَسْوَدِينِ حَتَّىٰ يَصِيرَا أَبِيضَيْنِ، أَهُونُ عَلَيَّ مِنْ طَلْبِ حَاجَةٍ مِنْ لَئِيمٍ لِوَفَاءِ دِينٍ "، قيل: " مَا الذُّلُّ؟ "، قال: " أَنْ يَقْفَ الْكَرِيمُ بَابَ اللَّئِيمِ ثُمَّ يَرْدُهُ ".

تيمور لنك سُئلَ مَرَّةً: " مَنْ أَنْتَ؟ " فَأَجَابَ إِجَابَةً رائِعةً قَالَ: " أَنَا غَضْبُ الرَّبِّ ".

الأقواء في الأرض عصيٌّ بيده الله ينتقم بهم ثم ينتقم منهم :

حينما يغضب الإنسان يصبح، ويشتتم، ويضرب، وينتفع، ويرتجف، ولكن ماذا يفعل الله جلَّ جلاله حينما يغضب؟ يسوق تيمور لنك، يسوق فرعون:

(وَإِذْ تَجْيَئُكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدْبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بَيْنَ الْبَحْرِ فَلَجَجَيْنَكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْثَمْ نَطَرْوَنَ (50))

((أنا مالك الملوك، وملك الملوك، قلوب الملوك بيدي، وإن العباد إذا أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد إذا عصوني حولت قلوبهم عليهم بالسخط والنقمة فساموهم سوء العذاب، فلا تشغلو أنفسكم بالدعاء على الملوك، ولكن اشغلوا أنفسكم بالذكر والتضرع أكفهم ملوككم)).

[أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء]

الأقواء في الأرض عصيٌّ بيد الله ينتقم بهم ثم ينتقم منهم:
وَكَذِلِكَ نُولَى بِعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (129))

(سورة الأنعام)

الظالم قهراً يُسلط على ظالم نفسه كي يقوله.

من أشد أنواع البلاء أن يؤمر المترفون ويمكّن الطغاة والظالمون:

قال تعالى:
(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَىٰ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شَيْئًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَتَرِيدُ أَنْ تَمْنَنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلُهُمْ أَئِمَّةً وَتَجْعَلُهُمْ الْوَارِثِينَ (5) وَتُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَتُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِّنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6))

(سورة القصص)

إذا عصاني من يعرفي سلطت عليه من لا يعرفي:

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ تُهْلِكَ قَرْيَةً أَمْرَنَا مُتْرَفِّهَا فَقَسَّوْا فِيهَا (16))

(سورة الإسراء: من آية 16 ")

وفي قراءة:

(مُتْرَفِّهَا فَقَسَّوْا فِيهَا (16))

لعل من أشد أنواع البلاء أن يؤمر المترفون، أن يمكن الطغاة والظالمون، هذا علاجٌ إلهي وهو من أقسى أنواع العلاج، الطبيب مثلاً يعطي المريض دواء عيار خمسة عشر، فيقول له: والله لم أستفد، يقول له: ارفع العيار، في خمسة، في ألف، في نصف مليون، في مليون، هذا العذاب الصعد، يعطي المستوى الأعلى والعيار الأشد إذا لم يؤثر المستوى الأقل.

استحق اليهود غضب الله وعقابه لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه :

أيها الأخوة الكرام، يقول الله عزَّ وجلَّ وهو يخاطب بنو إسرائيل وقلت لكم كثيراً في مطلع هذه السورة: نحن مُرَشَّحون أن نقع بالأمراض التي وقع بها بنو إسرائيل، وقد يقال: وقعنا بها، استحق اليهود غضب الله وعقابه لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، ما قولكم؟ لا يتناهون عن منكر فعلوه، قال عليه الصلاة والسلام:

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا : يا رسول الله، وإن ذلك لكان ؟ قال : نعم، وأشد ، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر، ونهيتم عن المعروف ؟ قالوا: يا رسول الله وإن ذلك لكان ؟ قال: نعم، وأشد ، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً)) .

[آخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

هذا مَرَضٌ خطير يوجب الها لا ك، وقد يقع به بعض المسلمين، يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف . والله الذي لا إله إلا هو من خلال هذه الدعوة المتواضعة لعشرين أو ثلاثين عام تقريباً، والله سمعت آلاف القصص، يأمر بنته أن تُسْفِر وأن تختلط، ينهاها عن أن تصلي، في بيوتات المسلمين يرفض أن يحِّجَّ زوجة ابنه، لا بد من أن يسير الابن على سير أبيه في التفلت، وفي الاختلاط، وفي كسب المال الحرام.

من أمراض اليهود الذين استحقوا عليها الها لا ك أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد.

امرأة سرقت فجاء حب رسول الله يشفع لها عند رسول الله، فغضب النبي أشد الغضب وقال: " يا أسامية أنتفع في حد من حدود الله ؟ " قال: " اغفر لي ذلك يا رسول الله "، فقال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلُكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقُوا فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الْمُضَعِّفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَأَيْمَنَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بْنَتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقْطَتْ يَدَهَا)) .

[مسلم عن عائشة]

إذاً هذه الأمراض التي ذكرها الله في سورة البقرة والتي تلبس بها بني إسرائيل، هذه الأمراض من المحتمل جداً أن نقع بها، وقد وقعنا بها، لذلك يبيّن الله لنا أمراض من سبقونا في أسلوب تربوي رائع، وأنتم أيها المؤمنون يمكن أن تقعوا في هذه الأمراض.

الناس رجال قوي ونبي فالقوى يملك الرقب بقوته والنبي يملك القلوب بكماله:

قال تعالى:

(وَإِذْ جَيَّنَاهُمْ مِنْ آلٍ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ (49))

آل فرعون أي من كان على منهج فرعون، من كان على شاكلة فرعون، ليس معنى آل فرعون أقرباءه، فالنبي من سار على منهجه، فهل يُعَذَّ أبو لهب من آل النبي ؟ لا، هل يُعَذَّ أبو جهل من آل النبي ؟ لا، ولكن يُعَذَّ سلمان الفارسي من آل بيت النبي، ويُعَذَّ صهيب الرومي من آل بيت النبي، ويُعَذَّ بلال الحبشي من آل بيت النبي، كل من آمن بالنبي وسار على نهجه واتبع سنته القولية والعملية فهو من آل الله، وكل من شاكل إنساناً وسار على نهجه فهو من آل الله .

كما قلت لكم من قبل: الناس رجال قويٌّ ونبيٌّ، فالقوى يملك الرقاب بقوّته، والنبي يملك القلوب بكماله، وكل الناس تبع إما لقوى أو لنبي، فالموظف مثلاً مهما تكن وظيفته متواضعة بإمكانه أن يفعل شيئاً يُزِّعْجُكَ، إذاً هو استخدم قوّته، فحينما تملك الرقاب بقوّتك فأنت من أتباع القوي، وحينما تملك القلوب بكمالك فأنت من أتباع النبي.

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ (49))

لذلك:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجْهُودُهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8))

(سورة القصص)

أنت لن تتجو من عذاب الله إذا فعلت أمراً لا يرضي الله وقلت: أنا عبد مأمور، من قال لك ذلك؟ من قال لك إنك عبد مأمور؟ العبد هو عبد الله فقط، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أن تقول: أنا عبد مأمور وتفعل في الناس ما تفعل هذا كلاماً مردوداً عليك، وله بحثٌ طويل في الفقه، لا مجال إلى تفصيات جزئاته في هذا الدرس، على كلٍ إن لم تكن قانعاً بهذا الذي تفعله اترك هذا العمل.

البطل هو الذي يهبي جواباً لله عزّ وجلّ لا لعبد الله:

قد يقول موظف: أنا أعمل بالتمويلين ويجب عليَّ أن أكتب في اليوم عشرة مخالفات، لعلَّ هذا الإنسان مظلوم، لا يوجد عبد مأمور، افعل قناعتك وانتظر أن يحاسبك الله عزّ وجلّ، البطل الذي يهبي جواباً لله عزّ وجلّ لا لعبد الله، بل لله:

(وَإِذَا الْمَوْعُودَةُ سُلِّكَتْ (8) بِأَيِّ دُبُّ قُتِّلَتْ (9))

(سورة التكوير)

يقول: أنا عبد مأمور، لا لست بعد مأمور، وهذه كذبة تكذبها أنت، الذين هم فوقك لا يرضيهم أن تفعل ما تفعل، لكن أنت تفعل ما تفعل لتبتز أموال الناس وتقول: أنا عبد مأمور، كلام فارغ أنت وحدك المسؤول، إذا لم يعجبك العمل فدعه، أما أن تؤذى الناس وتقول: أنا عبد مأمور، لأن الله عزّ وجل يقول:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجْهُودُهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8))

(سورة القصص)

وقال:

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ بَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدْبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ (49))

هناك إذلال، فليس هناك حالة ذل أشد من أن يُنْهَكَ عرض الإنسان أمامه، شيء فوق طاقة البشر.

إِيَّاكَ أَنْ تَصُلُّ مَعَ اللَّهِ إِلَى طَرِيقٍ مَسْدُودٍ فِي أَيَّاتِيِ الْعَقَابِ الْأَلِيمِ :

قال تعالى:

(يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ) (49)

ما قال الله تعالى: ويستحيون فتياتكم، بل إنه قال: نساءكم، من أجل المُثُّعَة:

(وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) (49)

لذلك الدعاء القرآني :

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) (286)

(سورة البقرة: من آية " 286)

والله أَيُّها الأخوة هناك مصائب لا يتحملها الإنسان، فوق طاقتة، لا تعمل عملاً تصل مع الله إلى طريق مسدود، تصور إنساناً وضع لِيُشْتَنقَ أمام مئة ألف إنسان، مجرم ارتكب جريمة قتل، أو ارتكب جريمة زنا وجريمة قتل فاستحق أن يُعدم أمام الناس جميعاً، هو وصل لطريق مسدود قبل أن يوضع الحبل في رقبته لِيُشْتَنقَ، إذا أحب أن يصبر فليصبر أو لا يصبر، إذا أحب أن يتولّ فليتولّ، أحب أن يستعطف فليستعطف، أحب أن يبكي فليبكي، أحب أن يضحك فليضحك، ولكن الطريق صار مسدوداً، إِيَّاكَ أَنْ تَصُلُّ مَعَ اللَّهِ إِلَى طَرِيقٍ مَسْدُودٍ بَأْنَ تَرْتَكِبْ جَرْمًا، أَنْ تَنْتَهِكَ عَرْضًا، أَنْ تَأْخُذْ مَالًا حَرَامًا فِي أَيَّاتِيِ الْعَقَابِ الْأَلِيمِ :

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) (286)

(سورة البقرة: من آية " 286)

العقاب أنواع ؛ هناك أمراض مستعصية، أنا أقسم لكم لو أن إنساناً وصل إلى أعلى درجة في الدنيا وأصابه مرضٌ عضال، وُعرضَ عليه أن يكون في أقل درجة وأن يعافى من هذا المرض، هل يتربّد لحظة في قبول ذلك ؟ لو كان ملكاً وأصابه مرض عضال وعرض عليه أن يكون موظفاً بسيطاً ضارب آلة كاتبة، هل يتربّد في قبول هذه الوظيفة المتواضعة جداً على أن يشفى من مرضه ؟ إنه لا يتربّد، فالذي عافاه الله في نعمةٍ كبرى، المعافي هو في نعمةٍ لا تقدّر بثمن، قد يصل الإنسان إلى أعلى مرتبة في الحياة ومعه مرض عضال، ماذا يفعل ؟ أطباء العالم كُلُّهم تحت تصرُّفه وماذا يفعل ؟ هذا قهر الله عزٌّ وجل.

الإنسان حينما يعرف الله في الوقت المناسب ويستقيم على أمره ويحافظه يحفظه وينصره:

أيها الأخوة الكرام:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ (286))

(سورة البقرة: من آية " 286 ")

هناك أشياء لا تحتمل، والإنسان حينما يعرف الله في الوقت المناسب، ويستقيم على أمره، وحينما يحافظه يرفع الله له ذكره، ويحفظه، وينصره، ويوقفه، ويقربه، ويسلمه، ويسعده، ويعطيه عطاءً كبيراً:

(وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49))

هل تحتمل مرضًا عصالاً؟ هل تحتمل فقراً مدقعاً يحملك على أن تثني في الحاوية؟ هل تحتمل أن تتخلّى عنك زوجتك وأولادك وأن يلقوك في الطريق؟ هل تحتمل ذلك؟ هل تحتمل أن تكون في غيابه السجن سنوات وسنوات؟ قل:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا (286))

(سورة البقرة: من آية " 286 ")

إذا كنت لا تحتمل فاستقم على أمر الله، المستقيم له معاملة خاصة، والمستقيم له حفظ من الله، والمستقيم له توفيق من الله، والمستقيم له هداية من الله عزّ وجلّ، والله جل جلاله يسألك به سبل السلام، سبل الأمان، سبل السعادة، سبل الرفع، سبل التوفيق.

إذا وجد الإيمان فإن المعركة بين الحق والباطل لا تطول لأن الله مع الحق:

شاهد بنو إسرائيل بأعينهم كيف أن البحر انشق طریقاً بیساً:

(وَإِذْ فَرَقْنَا بَعْنَ الْبَحْرِ فَانْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَآتَئْنَمْ تَنْظَرُونَ (50))

معجزات مدهشة، صار البحر طریقاً:

(وَإِذْ فَرَقْنَا بَعْنَ الْبَحْرِ فَانْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَآتَئْنَمْ تَنْظَرُونَ (50))

الله يتدخل أحياناً، وإذا تدخل الله تنتهي كل مشاكلنا، ولكن أنت اطلب منه موجبات رحمته، إذا فعلت موجبات رحمته أوجب ذلك أن يتدخل الله لصالحك، وتوجد بعض الشواهد في حياتنا، شيء لا يُحتمل صرفه الله عزّ وجل من عنده، أنا كنت دعوت في خطبة قبل أسابيع: " اللهم انصرنا على أنفسنا حتى ننتصر لك فنستحق أن ننصرنا على عدونا ".

لأن المعركة بين حقيقة لا تكون، الحق لا يتعدد، وبين حق وباطل لا تكون لأن الله مع الحق، وبين باطلين لا تنتهي لأن الله تخلي عن الطرفين، الأقوى هو الذي ينتصر، الأذكي ينتصر، ينتصر الذي

عنه سلاح أكثر فاعلية، ينتصر الذي عنده معلومات أكثر، ينتصر الذي عنده أقمار، ينتصر الذي عنده رصد، ينتصر الذي عنده ليزر، اختلف الوضع، إذا ابتعد الفريقان عن الله عز وجل يكون هناك ترتيب آخر، يكون الفوز نصيب الأقوى والأذكي والذي عنده سلاح أكثر جدوى، أما إذا وجد الإيمان فإن المعركة بين حق وباطل لا تطول لأن الله مع الحق.

أغرق الله فرعون ولكنه نجاه بيده إلى الشاطئ لكي يجعله عبرة:

قال تعالى:

(وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأْتَجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْثَمْتَنَّظِرُونَ (50)).

أغرق الله فرعون، ولكنه نجاه بيده إلى الشاطئ، لأنه إذا أغرقه واستقر في أعماق البحر لما صدق أحد أنه غرق، لأنه عندهم الإله، قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)).

(سورة النازعات)

وقال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (38)).

(سورة القصص: من آية " 38")

ولكنَّ الله أراد أن يجعله عبرةً:

(فَلَيَوْمَ تُنْتَجَيَ بِبَدْنِكَ (92)).

(سورة يوئيل: من آية " 92")

ما قال الله: لتكون آية أي لمن حولك، لكنه قال:

(لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً (92)).

(سورة يوئيل: من آية " 92")

المُعْجزات الحِسَيَّةُ وَهَذَا لَا تَكْفِي مَا لَمْ يَبْحُثَ الْإِنْسَانُ عَنِ الْحَقِيقَةِ:

هناك شخص يقرأ القرآن في أمريكا، وهو حديث عهد بالإسلام، يقرأ القرآن متخصصاً، فلما وصل لهذه الآية قال: هنا خطأ، كيف يقول الله عز وجل:

(لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

فاتصل به عالم من علماء المسلمين في فرنسا، فأجابه أن: فرعون موسى موجود في متحف مصر، نفسه موجود، فرعون الذي غرق في عهد موسى محنط، وقد أخذ إلى فرنسا لترميم جثته، وعاد، وفي فمه

آثار فطور بحرية، وفي فمه آثار ملوحة، وكل علامات الغرق بادية على جسمه، وهذا معنى الآية الكريمة:

(لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً (92) .

(سورة يومن: من آية " 92 ")

وقال:

(وَإِذْ فَرَقْنَا بَعْضَ الْبَحْرِ فَأَلْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا أَلْفَرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظَرُونَ (50) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً (51) .

وعد الله عز وجل موسى مع النقباء وعليه القوم ليعطيهم المنهج، ماذا فعل قومه في غيبته؟ اتخذوا من الذهب الذي أخذوه من بيوت فرعون عجلاً جسداً، وعبدوه من دون الله، ماذا نستنتج؟ هذا الذي رأى أن البحر أصبح طريقاً يبسأ كيف يعبد عجلاً من دون الله؟ نستتبط من هذا أن المعجزات الحسية وحدها لا تكفي ما لم يبحث الإنسان عن الحقيقة، الكون بما هو عليه من دون خرق للعادات يُعدّ معجزةً وأيّة معجزة، أما هذا الذي يطلب خرقاً العادات، هذا الذي يطلب كرامة!!! هناك طلاب علم كثيرون يبحثون عن كرامة، عن منام، عن شيء فيه خرق للعادات !! هذا النظام المستقر، الشمس والقمر، والليل والنهر، المجرات، الجبال، السهول، البحار، النباتات، الأطياف، الأسماك، أنواع الخضروات، المحاصيل، نظام النباتات، هذا كلّه لم يلفت نظرك، خلق الإنسان! تبحث عن معجزة! تبحث عن خرق للعادات !!

أشد أنواع الظلم أن تشرك بالله:

هؤلاء الذين رأوا البحر أصبح طريقاً يبسأ، بينما نجّاهم الله عز وجل اتخذوا من الذهب عجلاً له خوار وعبدوه من دون الله:

(ثُمَّ أَخْتَمْنَا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) .

إن أشد أنواع الظلم أن تعبد غير الله، أشد أنواع الظلم أن تشرك بالله، أشد أنواع الظلم أن تبعد إلهها صنعته بيديك، وهذا ما تجده في كثير من البلاد إلى الآن، تدخل إلى معبد في الهند تجد صنماً ارتفاعه ثلاثون متراً وأمامه أنواع منوعة من الفواكه، تسأل: من هذه الفواكه؟ يجيبونك: هو يأكلها في الليل، والحقيقة أن الكهان يأكلونها في الليل، هذا تراه الآن في عصر التور والحضارة كما يدعون. بينما يؤمن الإنسان بالله يكون قد احترم نفسه، الإنسان بينما يكون عاقلاً يوحّد، يكون قد عرف قيمته كإنسان، يكون قد كرم نفسه، أما بينما يتخد صنماً ليعبده طبعاً هذا هو الشرك الجلي، لكن المسلمين والمؤمنين قد يقعون في شركٍ خفي، بينما يتواهّمون أن المال يحل كل مشكلة، لا، المال لا يحل

المشكلات، فإذا اختل نمو الخلايا اخئت في النمو، المال لا يحل المشكلات، وأن تكون في أعلى درجة في الحياة لا تحل مشكلة، الله عز وجل هو الفعال، هو القهار، هو واهب الحياة، هو المُحيي، هو المُميت، هو الحافظ، هو الناصر، هو الموقف، هو الرافع، هو الخافض، هو المعطى، هو المانع، هو الرازق، هو المعز، هو المذل.

إن الشرك لظلم عظيم، وحينما تتجه لغير الله أو تعتمد على غير الله فقد وقعت في ظلم شديد.

من الشرك أن تعتمد على شيء آخر غير الله عز وجل :

قال تعالى:

(ثُمَّ أَخْذَتُمُ الْعِجْنَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَثْمَمْ ظَالِمُونَ (51)).

تصوّر إنساناً لديه قضيّة خطيرة جداً، مثلاً لو أخذ الموافقة فهو يربح مئات الملايين، وهذه الدائرة فيها مدبر عام الأمر مُناط به وحده، وفيها موظفون، وفيها حُجاب، وفيها حارس، فإذا وقف هذا الإنسان الذي معه المعاملة أمام الحارس أو الحاجب فترجّاه، وتضعضع أمامه، وبذل ماء وجهه، وعلق عليه الآمال، ثم خاب ظنه به، هذا الشرك، هذا الذي تضعضعت أمامه عبدٌ مثلّك، هذا الذي بذلت ماء وجهك أمامه عبدٌ مثلّك، هذا الذي توهمت أنه يحلُّ هذه المشكلة لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ضرراً ولا يجلب نفعاً، فإذا كان الله يأمر سيد الخلق أن يقول لقومه:

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًا وَلَا رَشَدًا (21))

(سورة الجن)

سيد الخلق، وفي آية أخرى :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نُفْعًا وَلَا ضَرًا (188))

(سورة الأعراف: من آية " 188 ")

((يا فاطمة بنت محمد أنقذني نفسك من النار أنا لا أغني عنك من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأسبابكم، من يبطن به عمله لم يسرع به نسبه)) .

[أخرجه مسلم والترمذى وابن ماجة وأحمد والدارمى عن أبي هريرة]

إذاً أشدّ أنواع الظلم أن تبعد إليها آخر غير الله عز وجل، أو أن تعتمد على شيء آخر غير الله عز وجل، ثم يقول الله عز وجل :

(ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52))

أهمية التوبة:

أيها الأخوة الكرام، صعب جدًا أن تصوّروا دينًا من دون توبه، لأن أقل ذنب من دون توبه يقودك إلى أكبر ذنب ثم إلى النار، أما مع التوبة فأكبر ذنب يغفر الله عنك:

((لو جنتني بملء السماوات والأرض خطايا غرفتها لك ولا أبالي))

[حديث قسمى]

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْطُلُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَعْفُرُ الدُّنْبُرَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53)).

(سورة الزمر)

وقال:

(نَبِيٌّ عِبَادِيَ أَتَيْ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49)).

(سورة الحجر)

وهكذا:

(ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ (52)).

ماذا فعل هؤلاء؟ فعلوا أشد أنواع الذنوب، أشركوا بالله، عبدوا عجلًا من دون الله، صنعواه بأيديهم وعبدوه من دون الله ومع ذلك باب التوبة مفتوح على مصراعيه، تصوّر لو لم يكن هناك توبة ليئس الإنسان من أقل ذنب، لو ارتكب الإنسان ذنبًا بسيطًا ولا توجد توبة لسمح لنفسه أن يرتكب ذنبًا أكبر، وهكذا إلى أن يفعل كل الذنوب والآثام، وينتهي إلى النار، لكن رحمة الله كبيرة.

الله تعالى رَحَمَ أَمَّةَ مُحَمَّدٍ فجعل توبه المؤمنين لا تقتضي أن يقتل بعضهم بعضاً إذا أذنوا:

قال تعالى:

(وَإِذْ أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لِعَلَّكُمْ تَهَتَّدُونَ (53)).

ثمة توبه، وعفو، وكتاب، وسُنة، وعلماء، ودعاة، ومعالجة نفسية، ومعالجة سلوكيّة، وكل شيء من أجل أن تعرف الله، ومن أجل أن تتصل به، ومن أجل أن تطيعه:

(وَإِذْ أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لِعَلَّكُمْ تَهَتَّدُونَ (53) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمَ إِنَّمَا ظلمْنَمْ أَنْفَسَكُمْ بِاتَّخَذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُؤْبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفَسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54)).

أيها الأخوة، هذا مما حمله بنو إسرائيل لأنهم عبدوا العجل من دون الله، وهذا يعني قول الله عزّ وجلّ:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ (286)).

(سورة البقرة: من آية " 286 ")

أي أن الله أمر الذين لم يعبدوا العجل أن يقتلوا من عبد العجل جزاء ارتكابهم أكبر ذنب في الدين، وهو أن تشرك، لكن الله عزَّ وجلَّ رَحْمَةً مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجعل توبة المؤمنين لا تقتضي هذا القتل، يكفي أن تقول: يا رب لقد تبت إليك، يقول لك: عبدي وأنا قد قبلت، هذه رحمة كبيرة، ولكنبني إسرائيل كُلُّفوا أن يقتلوا أنفسهم، أن يقتل بعضهم بعضاً، أن يقتل الذين لم يعبدوا العجل الذين عبدوا العجل.

إِيَّاكَ أَنْ تَعْتَدُ عَلَى جَهَةِ غَيْرِ اللَّهِ فَيُخِيبُ ظُنُوكُكَ بِهَا وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِالْإِنْسَانِ:

قال تعالى :

() وَإِذْ أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لِعَلَّكُمْ تَهَدُونَ (53) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمَ إِنَّكُمْ ظَلَمُّتُمْ
أَنْسَكْتُمْ بِاَخْدَمْكُمُ الْعَهْلَ فَتُؤْبِدُوا إِلَيَّ يَارَئِكُمْ (54))

ما الذي يحصل الآن؟ إذا أشرك الإنسان ماذا يحصل له؟ الله عزَّ وجلَّ يخيب ظنَّه بهذا الذي عبَدَه من دون الله، اعتمد على ماله، يسوق الله له مصيبة لا يحُلُّها المال، اعتمد على إنسان قريب قوي يلهم الله هذا القريب أن يتخلَّ عنَّه، يقف منه موقفاً لئيماً، هذه معالجة الله، اعتمد على زوجته وظنَّ أنها تسعده إلى أبد الآبدين، فإذا هي تعامله أسوأ معاملة، اعتمد على ابنه، يسافر ولا يرسل رسالة إلا مرَّة كل سنتين، وقد يتجمَّس ويتزوج وينسى أباه، إياك أن تعتمد على جهةٍ غير الله فيخيبُ ظنك بها وهذا من رحمة الله بالإنسان، اعتمد على الله، لا على مال، ولا على جاه، ولا على أتباع، ولا على أهل، ولا على زوجة، طبقَ منهج الله واعتمد على الله ولا تعتمد على مخلوق سوى الله فهذا نوعٌ من أنواع الشرك.

كل إنسان خاف الله فيما بيته وبين الله أمنه الله فيما بيته وبين الناس :

قال تعالى :

(فُوَيْبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِدْ بَارِئِكُمْ قَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ (54))

يقولنا هذا المعنى إلى معنى آخر وهو أن الله جل جلاله يسوق لك أحياناً شدّةً شديدةً من أجل أن ترمم خلايا خطأً.

أيتها الأخوة، من نعم الله الكبرى أن شرعنا الإسلامي لا يقتضي من أجل أن تتوّب إلى الله أن تقتل نفسك ولا أن تُقتل، وهذه رحمة بآمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن المؤمن العاقل يبتعد عن ذنب

خطير، ففي الحياة الآن أمراض غير القتل، فيها أمراض عُضالية، وفيها عاهات، وحوادث سير، فيها فقر مدقع، وفيها تشتت أسرة، هناك أحياناً دُل، وأحياناً فَهْر، أو فقد حُرْيَة، فعند الله معالجات منوّعة كثيرة جدًا، فالمؤمن العاقل هو الذي يحتاط للأمور قبل وقوعها، ويحاف من الله فيما بينه وبين الله، وكل إنسان خاف الله فيما بينه وبين الله فيما بينه وبين الناس، هذه قاعدة؛ مستحيل ثم مستحيل ثم مستحيل أن تخاف الله فيما بينك وبينه ثم يخيفك من أحد، ولكنه يطمئنك.

"أمنان وخوفان، لا يجمعان أمن الدنيا وأمن الآخرة، إن خفت الله في الدنيا أمنك يوم القيمة، وإن

أمنتَ عذابَ الله في الدنيا أخافك يوم القيمة".

هذا كلام دقيق وخطير، كلام مصيري، وليس الأمر على مستوى أن تقول: والله الدرس ممتع، لا، لا، لا فالامر أحطر من ذلك، الدرس خطير يتعلق بالمصير، المصير الأبدى، وساعة الموت هي ساعة الفصل، وهذه تنتظرنا جميعاً ولا أحد ينجو من هذه الساعة، بقدر معرفته بالله، وبقدر طاعته، وبقدر إخلاصه، وبقدر عمله الصالح ينجيه الله عزّ وجلّ من هذه الساعة العصيبة.

والحمد لله رب العالمين